

# النثر العربي القديم

## المحاضرة الأولى :

### النثر العربي القديم

إن النثر في اللغة هو الشئ المبعثر (المتفرق)<sup>1</sup>، وأيضاً التشتت. فنقول تناثرت الأوراق أي تشتت وتفرقت في كل اتجاه.

أما في الاصطلاح هو الكلام الذي ليس فيه الوزن، ويعتمد على الحقائق، أي هو الكلام المقفى بالأسجاع، وهو الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء. وهو أنواع منه ما يكون قصصاً وما يكون خطابة وما يكون مثلاً وحكمة وإما يكون رسائل أدبية محبرة<sup>2</sup>

### نشأة النثر العربي القديم:

أ-العصر الجاهلي: لقد تميز النثر في العصر القديم بقلته، وذلك بتناقل الناس بالطريقة الشفاهية مما أدى إلى ضياعه وعدم وصوله إلينا كاملاً. وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهلين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة فقد عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية<sup>3</sup> وكذلك وجدت صحيفة لقمان بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على إنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثرًا وشعرًا. وفقدان الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوانا مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان<sup>4</sup> فالخطابة استخدمت في الدفاع عن القوم أو التحريض عن القتال ونصرة الضعيف والافتخار بالقبيلة. كما استخدموها في مناظراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب وفك المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى حيث كانت تقام الخطب في

<sup>1</sup>-ابن منظور لسان العرب ج14 ص422.

<sup>2</sup>- شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة ط3، د.ت ص19.

<sup>3</sup>- نفسه الصفحة نفسها.

<sup>4</sup>- شوقي ضيف. العصر الجاهلي 399.

الأسواق التجارية مثل خطبة قُس بن ساعدة في سوق عكاظ<sup>1</sup> الذي حضر فيها النبي صلى الله عليه وسلم.

ويرى الجاحظ أن خطبة قريش في الجاهلية يعني بها خطبة النساء<sup>2</sup>.

أما الأمثال والحكم فكان له الحظ الوافر وهو تراث الأمم والشعوب، فالعربي يميل إلى تزيين كلامه وتقويته بضرب الأمثال فصاروا يدونها العرب في أواسط القرن الأول الهجري لكن فُقد الكثير من الأمثال وهذا راجع إلى سبب تأخر التدوين وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر<sup>3</sup>. ووجدت أمثال وحكم مجهولة قائلها غالبًا تنبعث من أناس مجهولين من عامة القبائل. والقصص فقد تناولت وقائع و أحداث الأمم السابقة مثل أخبار العرب البائدة ورام ذات العماد و عام الفيل ورواها القصاص في أوقات سهرهم في الليل وحول مضارب حياتهم وفي مجالس أهل القرى والحضر. وقد دخل عليها التحريف والتبديل بسبب عدم وجود التدوين والكتابة، كما تناولوا مغامراتهم ورحلاتهم وبطولاتهم وانتصاراتهم في الحروب وكانوا يقصون كثيرًا عن ملوكهم من النادرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم، وأيضا على أبطالهم وملوك الأمم من حولهم وشجعانهم وكهانهم وشعرائهم وسادتهم. وقصص الهوى والعشق مثل ما نجده في قصة "عنترة وعبلة" و "المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف"<sup>4</sup>.

أيضا نجد سجع الكهان الذي هو أسلوب مسجع حافل بالأقسام والإيهام. والكهان عند العرب القدامى هم طائفة أدعت معرفة الغيبات والمستقبل بما سخرلهم من الجن الذين يسترقون السمع من السماء، وهذا الضرب انتهى مع مجيء النبي صلى الله عليه وسلم وكان كثيرًا ما يندرون بوقوع حروب وغزوة غير منتظرة. كما كان كثيرًا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم.

وكان أكثر كهان العرب حسب رأي الجاحظ هو سَلِمَة بن أبي حية. وفي النساء أشهرهن الشّعناء. وكاهنة ذي الخلصة، والكاهنة السعدية، والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء. فكانوا يقسمون ويؤمنون بالكواكب والنجوم والسحب والرياح والليل الدجي والصبح المنير والبحار وكثير من الطير في اعتقادهم هذه الأشياء تحكمها قوة وأرواحًا حقيقية، مثل قول زبراء كاهنة بني رثام ويُروى أنها أُنذرتهم

<sup>1</sup> - نفسه ص 412.

<sup>2</sup> - الجاحظ البيانو التبيين ج 1، ص 408.

<sup>3</sup> - شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص 404.

<sup>4</sup> - نفسه ص 400.

بغارة عليهم فقالت: واللوح الخافق والليل الغاسق والصبح الشارق والنجم الطارق والمزن الوداق. إن شجر الوادي ليأدو ختلا ويحرقا أنيابًا عَطْلًا وإن صخر الطّود لينذر شكلا لا تجدون عنه معلا"<sup>1</sup>.

والرسالة أو الترسل في هذا العصر قد أخذت عدة أشكال بسبب عدم وجود التدوين والكتابة فكان الترسل إشاريًا وشكل آخر كان لغويًا إما شفويًا أو شعريًا. فكثرت الرسالة الشعرية وهذا ما وصل إلينا كان أوسع وأغزر لأن العصر الجاهلي كان الغالب فيه على العرب أنه عصر مشافهة وبدواة لذلك كانت رسائلهم شفوية لكن ليس بمثل الكم الهائل بالنسبة للرسائل الشعرية وذلك لسهولة تنقله وسيورته فتقريبًا كل المعلقات هي عبارة عن رسائل مثل معلقة النابغة الذبياني في اعتذاراته.

**ب-العصر الإسلامي:** لقد تطور النثر في هذا العصر بسبب نزول القرآن الكريم وظهور الحديث النبوي الشريف، فالقرآن تميز ببلاغة ألفاظه ووضوح معانيه وجاء بمواضيع لم تكن مطروقة إليها من قبل العرب في شعرهم أو نثرهم. "فدخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى ولم يكن ثمة بدمن أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر. لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطأ سابقه. ويلتزم بأصول محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور"<sup>2</sup>.

أما أغراض النثر ومعانيه فإنها بلا شك تغيرت تغيرًا محسوسًا بظهور الإسلام. و"تلون النثر في هذا العصر بجميع ألوان الحياة الجديدة. فكان خطابة وكتابة ورسائل وعهودا وقصصًا ومناظرات وتوقيعات. وكان على كل حال أدبًا مطبوعًا، وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصلية"<sup>3</sup>.

أما الحديث النبوي الشريف تميز ببلاغة ألفاظه وروعة تعبيره وبعده عن التكلف والتصنع وقوة الإقناع والتأثير، وكان له الأثر الواسع في ظهور مجموعة من الفنون النثرية من خطب دينية وأمثال ضربها النبي صلى الله عليه وسلم ومجموعة من الوصايا والحكم مثل وصايا النبي صلى الله عليه وسلم. وما وجدنا من وصايا لقمان في الذكر الحكيم فتطورت الخطبة في هذا العصر بتطور موضوعاتها حيث تناولت الدعوة إلى الدين الجديد (الإسلام) بعد أن كانت سابقًا في الدعوة إلى

<sup>1</sup>- شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص421.

<sup>2</sup>- عمر الدقاق. مواكب الأدب العربي عبر العصور. دار طلاس. دمشق ط1، 1988 ص77.

<sup>3</sup>- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي. منشورات ذوي القربى. ط3، 1427 ص 322.

العصبية القبلية. كما دعت الخطبة إلى التوحد والإيحاء والتعرف على أمور الدين والدنيا من معاملات وعبادات واستخدمت الرسائل في العصر الإسلامي وذلك رغبة النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ملوك العالم إلى الدين الإسلامي، فتميزت بالوضوح التام والإيجاز والبعد عن التكلف من أجل تحقيق الهدف، وتلت مجموعة من الرسائل من الخلفاء الراشدين إلى قادة الإمارات والامم.

وظهرت القصة القرآنية فأصبح هذا اللون موجوداً في الذكر الحكيم أي سرد قصص الأنبياء مصداقاً لقوله تعالى: "نحن نقص عليك أحسن القصص"<sup>1</sup>، وأيضاً سرد ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم. والصحابة -رضوان الله عليهم- وهذا ما نجده في سرد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسير الخلفاء الراشدين.

دعا الرسول عليه السلام إلى الكتابة وتعلم الكتابة ونشر ما بين أصحابه وخاصة لما كثر اللحن والخطأ في تدوين الوحي والحديث النبوي الشريف، حيث أصبحت الكتابة تستعمل في الأمور الدنيوية من معاملات بين الناس مثل كتابة الدين في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق....."<sup>2</sup>.

وكذلك كانت الكتابة تستعمل في العقود والعهود وهذا ما نجده في المعاهدة التي كتبها الرسول عليه السلام بينه وبين قريش عام الحديبية والتي نصت على وضع الحرب عن الناس عشرين سنة ذمة لا تنكث "وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه"<sup>3</sup>.

**ج-العصر الأموي:** ازدهر النثر في هذا العصر ازدهاراً واسعاً. وبداية التحزب بعد مقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ويرجع سبب ازدهار النثر هو ظهور الكتابة مع عبد الحميد الكاتب (749م/ 132هـ) في القرن الثاني الهجري وظهور التدوين: إن الكتابة نمت في العصر الأموي نمواً واسعاً. فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات. وقد ألفوا كتباً كثيرة"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - سورة الكهف الآية 3.

<sup>2</sup> - سورة البقرة الآية 282.

<sup>3</sup> - شوقي ضيف، العصر الأموي. ص131.

<sup>4</sup> - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه. ص100.

ولعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقى الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة وتعدد الحياة السياسية وكثرة الأحزاب والمذاهب<sup>1</sup>.

فأصبحت الخطابة متطورة ومتنوعة بعد ما كانت في الإسلام الخطبة الدينية مهيمنة وفي العصر الجاهلي العصبية قوامها. فأصبحت متعددة بتعدد الأحزاب السياسية التي ظهرت في هذا العصر وكثرة الفتن والاضطرابات وتوسع الفتوحات الإسلامية. وقد تناولت موضوعاتها السياسية الوعظ والإرشاد والحروب والمسائل الاجتماعية فكانت متأثرة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وجدت كذلك في هذا العصر التوقيعات التي هي عبارات موجزة غاية في البلاغة والعمق والروعة يكتبها أمير أو الوالي في أسفل الطلبات أو الحاجات أو القضايا والشكاوي التي ترفع إليه ويكون التوقيع في الأسفل يوجه به معاونيه إلى ما ينبغي فعله وتمتاز بالإيجاز والبلاغة والسمو بالمعنى وقوة الألفاظ ومن الممكن أن يكون التوقيع آية من القرآن أو مثلاً أو حكمة<sup>2</sup>.

فالرسائل كذلك كان لها نصيب وافر في هذا العصر حيث ازدهرت بكثرة نتيجة اتساع الدولة الإسلامية وحاجة الخلفاء إلى مراسلة ولا تهم، ونتيجة لامتزاج الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى الأجنبية وظهور ديوان الرسائل وانقسمت إلى عامة وخاصة، كما شاعت إلى جانب الرسائل السياسية الرسائل الوعظية وخاصة مع الخليفة عمر بن عبد العزيز والحسن البصري.

كما أوصوا الخلفاء والولاة أولادهم حول الحكم والخلافة مثلما يوصي معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد. كما كانت موجهة الوصية إلى عامة الناس. إلا أن موضوعها تقريبا كان حول الأمور السياسية والحربية.

**د-العصر العباسي:** لقد خطا النثر في العصر العباسي خطوة واسعة فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت وذلك لاستقرار الأمور في الدولة والنضج العقلي وتشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم وظهور الترجمة والنقل وامتزاج الثقافات بسبب الفتوحات الإسلامية. حيث أصبح النثر متعدد الفروع فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي والنثر الأدبي الخالص. وكان في بعض صورته امتدادا للقديم. وكان بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> عبد الحكيم بليغ، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه. مكتبة الأنجلوا المصرية، مصر، دط. دت. ص 122 - 125.

<sup>2</sup> شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 489 - 490.

<sup>3</sup> شوقي ضيف، الفن وهذا ومذاهبه، في النثر العربي. ص 125.

فقد ضعفت الخطابة السياسية في أواسط العصر العباسي وانتشرت الخطابة المحفلية بعدما استقرت الأحزاب السياسية والتعصب الحزبي ظهرت الخطبة الوعظية". وضعفت الخطابة الدينية على لسان الخلفاء والولاة<sup>1</sup> فدخلت الخطابة في هذا العصر لتحاكي ما هو موجود في واقعها بعدما تمدن العرب وأصبحت له ثقافات وعادات وتقاليد دخيلة عليه من الوافد الأجنبي. فتنوعت بشكل كبير وتنوعت ميادينها.

نمت الرسائل بنوعها (الديوانية والإخوانية) في هذا العصر نموًا واسعًا. ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهد. ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجذب وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم، وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر<sup>2</sup>. وهي أقسام ومواضيع تخص الرسائل الإخوانية التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ومن تهنئة واستمناح وثناء أو تعزية.<sup>3</sup>

فالقصاص والسرد ظهر بسبب ظهور الترجمة فترجمت العديد من القصص والحكايات والكتب من اللغة الفارسية والهندية والرومية... إلى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب مع باقي الأمم الأجنبية مما أدى إلى ظهور كتب مترجمة مثل كتاب ألف ليلة وليلة مجهول المؤلف. وكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع الذي ترجمه من الفارسية الهندية إلى العربية للفيلسوف الهندي بَيَدَبَا. فظهر فن المقامات أيضًا في هذا العصر والتي هي عبارة عن حكايات قصيرة تشمل كل واحدة منها على حادثة وبطل تكون مسجوعة ومتصنعة الألفاظ ولها حكم ومواعظ.

### خصائص النثر العربي القديم:

- استعمال المحسنات منها السجع وخاصة في المقامة والخطب والرسالة والتوقيعات وسجع الكهان.
- التدعيم بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف.
- الإقناع الهادف والتأثير في القارئ والمستمع.

<sup>1</sup> - شوقي ضيف العصر العباسي الأول، ص 452.

<sup>2</sup> - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول. ص 468.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 491.

-الألفاظ متداولة.

-سهولة العبارة وجزالتها.



الخطابة في اللغة هي مراجعة الكلام. وهي الكلام المنثور المسجع<sup>1</sup>. أما في الاصطلاح هي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالاته. فلا بد من مشافهة وإلا كانت كتابة أو شعراً مدوناً. ولا بد من جمهور يستمع وإلا كان الكلام حديثاً أو وصية. ولا بد من الإقناع وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين. ليعتقدوه كما اعتقدته ثم لا بد من الاستمالة والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها ويفيض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف يشاء. ساراً أو محزناً. مضحكاً أو مبكياً داعياً إلى الثورة أو السكينة. إذا فأسس الخطابة: المشافهة، الجمهور، إقناع، استمالة<sup>2</sup>.

### الخطابة في العصر الجاهلي:

لقد ازدهرت وشاعت الخطابة في العصر الجاهلي بإلزام من واقع ذلك العصر الفروسي وطبيعة الصحراء، حيث كان الإنسان يكسب عيشه بالغزو والقتال. إضافة إلى ذلك كان العربي متعصباً لقبيلته دون سائر القبائل مفتخراً بها وبنفسه فكان الخطيب الجاهلي هو الذي يُولي جموع القبائل على أعدائها ويدعوها إلى الصلح ويمثل القبيلة في مجالس الاحتكام والشورى. كما أنه بالإضافة إلى ذلك يشير بالحرب أو ينهى عنها وهكذا فإن الخطابة في نشأتها الأولى خلال الجاهلية. كانت تصحب المقاتلين في غمار المعارك وتسهم في ملاحم البطولة إلى جانب السيف وتساعد في وضع أكاليل الغار على رؤوس الأبطال. كما تلحق الذل بالمنكسرين المخذولين<sup>3</sup>، ومن بين هاته الخطب نجد خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني يوم ذي قار إذ قال: "يا معشر بكر ذلك مغذور خير من ناج فرور إن الحذر لا ينجي من القدر وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره الطعن في ثغر النحور في الاعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنية من بد"<sup>4</sup>.

كما استخدمت الخطابة كذلك للنصح والإرشاد وإصلاح ذات البين وفي مناسباتهم الاجتماعية المختلفة والزواج أو الإصهار إلى الإشراف حيث كانوا يخطبون في المحافل العظام والوفادة على الملوك

<sup>1</sup> - ابن منظور الأنصاري الإفريقي. لسان العرب. م1. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1. 1424 هـ. 2003. ص 181.

<sup>2</sup> - أحمد محمد الحوفي. فن الخطابة. دار العلوم. القاهرة مصر ط4. د.ت. ص10.

<sup>3</sup> - ايليا الحاوي. فن الخطابة وتطوره عند العرب. دار الثقافة بيروت لبنان ط2. د.ت. ص31.

<sup>4</sup> - نفسه ص 32 - 33.

والأمراء وكذلك في الأسواق والندوات متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها<sup>1</sup> حيث الأسواق عبارة عن أمكنة في شتى أنحاء الجزيرة العربية وكانت تقام عادة في الأشهر الحرم التي حُضر فيها القتال، أي أشهر السنة الأولى ذي القعدة، ذي الحجة ومحرم. حيث كان العرب يقصدونها لشؤون تجارية وأدبية فيعالجون فيها مفاديات الأسرى والخصومات وينصرفون إلى المفاخرة والمنافرة في خطبهم بالحسب والنسب والكرم، وأشهراته الأسواق على الإطلاق سوق عكاظ<sup>2</sup>. كما كانت في الجاهلية ندوات لكل كبيرة وصغيرة يجتمعون فيها للتشاور ويخطب فيها الخطب ومن أشهرها "دار الندوة" لرؤساء قريش حيث كانت لهاته الندوات والأسواق أثر فعال في شيوع الخطابة وازدهارها<sup>3</sup>. بالإضافة إلى ذلك فهناك سبب آخر يعلل ظاهرة ازدهارها في العصر هو واقع الأدب الجاهلي وطبيعته الشفهية لذلك سهل للجاهلي أن يلقي الخطابة شفاهية وبأسر أسلوب.

لقد كان للخطيب منزلة رفيعة في هذا العصر حيث أصبح سيدًا في قومه يأمر فيطاع ويدعوا فيُجاب كما حفل هذا العصر بالكثير من الخطباء واشتهر منهم: عتبة بن أبي ربيعة وقيس بن الشماس. سعد بن الربيع. أبو عمار الطائي وهاني بن قبيصة الشيباني وزهير بن جُناب. وأشهر القبائل خطابة قبيلة تميم ومن خطبائها: ضمرة بن ضمرة وأكتم بن صيفي وعمرو ابن الأهثم المنقري وهاشم عبد مناف وأشهر الخطباء مأمون الحارثي<sup>4</sup>. أما أشهر خطباء الجاهلية على الإطلاق قس بن ساعدة الإيادي وهو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمها. كان يؤمن بالله ويدعوا إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال انه أول من خطب على شرف وإتكأ على سيف وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي - صلى الله عليه وسلم- في عكاظ فأثنى عليه ويروي أنه قال فيه "رحم الله قسًا إني لأرجوا يوم القيامة أن يبعث أمة وحده". عاش يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة 600م وقد عمر طويلا.

قال في خطبته في سوق عكاظ: "أيها الناس اسمعوا وعوا. إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت. ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهـر، وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجرأة. إن في السماء لخبراً. وإن في الأرض لعبراً ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟

<sup>1</sup> - شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في الشعر العربي. دار المعارف. القاهرة مصر ط13. 2003 ص144

<sup>2</sup> - حنا الفاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. دار الجيل بيروت. لبنان ط. 1426هـ 2005م. ص51.

<sup>3</sup> - نفسه ص 116 - 117.

<sup>4</sup> - محمد مرتاض - قراءة جديدة للنثر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر ط1. 2012 ص 27 - 28.

يا معشر إباد أين الآباء والأجداد. وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وأطول أجالا؟  
طحنهم الدهر بكله. ومزقهم بتطاوله"<sup>1</sup>.

فقد تميزت الخطابة في هذا العصر بمجموعة من الخصائص أهمها: الإيجاز وكثرة السجع أحيانا  
امتلاؤها بالأمثال والحكم. سيطرة العاطفة عليها. دعوتها إلى سمو الأخلاق والتبصر وتحكيم العقل  
سهولة ألفاظها وقصر جملها، ندرة الصور البيانية ووفرة المحسنات البديعية عدم استشهاد بالشعر،  
اشتمالها على إشارات مثيرة للعصبية القبلية أو الحمية الجاهلية أحياناً.<sup>2</sup>

### لخطابة في صدر الإسلام :

لقد تطورت وانتشرت الخطابة في هذا العصر بكثرة بمجيء النبي- صلى الله عليه وسلم-. الذي كان  
يعرض على قومه من قريش كل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم. وهو يخطب في الناس داعياً  
إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة والحسنة. محاولاً بكل طاقته ان يوقظ ضميرهم بما يصور لهم في قوة  
الكائن الأعلى مدبراً الكون ومنظمه ونبذ المنافرات الجاهلية القائمة على التكاثرات بالآباء والأنساب.  
فاتسمت الخطابة في هذا العصر بعد هجرة الرسول (ص) إلى المدينة. حيث أخذ يشرع للمسلمين  
ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل  
الحق والخير وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامي، مبيناً لهم معاني  
الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به. فتناولت خطبه المشاكل الدنيوية  
كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة وعند ذلك من مشاكل حُلَّت  
بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته.<sup>3</sup>

وعلى هذا كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في  
صلاة الجُمع ثم مواسم الحج والأعياد.

ونمضي في عصر الخلفاء الراشدين. فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد والمواقف التي تجلت فيها  
براعة هؤلاء الخلفاء كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى  
وموقفه يوم السقيفة. وكذلك موقفه حيث ارتد كثير من العرب وامتنعوا على أداء الزكاة وكم من

<sup>1</sup>- أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربي. دار المعرفة بيروت لبنان ط1، 1428- 2007 ص 19- 20.

<sup>2</sup>- محمد مرتاض مرجع سابق ص32.

<sup>3</sup>- شوقي ضيف- العصر الإسلامي. ص109.

خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة، ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد على المسلمين في كل مكان يحدّونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض. وترتفع أصوات القادة بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طالبين لما عند الله من الثواب. ولا نغفلوا إذا قلنا إن بلدًا من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحت خطبة أحد هؤلاء القادة كخطبة المغيرة بن شعبه في القادسية وخالد بن الوليد في اليرموك، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلّة. ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة، فقد أخذت تحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها. وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها إذ تكاثر من يرد دونهما ومن يحسنون حوكمها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة. ويتولى عمر بن الخطاب الخلافة فيكثر في الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ومع كل خير يأتيه بفتح. وقد سار على هدى أبي بكر في استشارة أصحابه في كل مهم وكل ما يجد من تشريع. وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة. وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة في العصر، وفي عهد علي تكاثر الخطب بين أنصار علي وخصومه فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته.

وانتدب علي أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام. فخرجوا معه إلى صقّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده. وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب بكثرة مفرطة وخاصة في صفوف علي وأصحابه. وكان هو نفسه خطيباً مقوِّهاً. وكان بجيشه غير خطيب من أمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة.<sup>1</sup>

ومن خصائصها الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. البعد عن التكلف. التخلص من الصنعة اللفظية، بدأها بالحمد والثناء والشكر لله والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-. نقاء الألفاظ واختياره. وحدة الموضوع. جزالة اللفظ ورضانته. إيراد الحجج والبراهين. الإقناع والتأثير في

<sup>1</sup> - شوقي ضيف. العصر الإسلامي. ص 110.

المستمعين واستعمال أساليب التوكيد والاستفهام. الأمر والنهي والدعاء. استعمال السجع في جل الخطب.

لقد نمت هذه الخطابة في هذا العصر نموًا واسعًا، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية. وقد دارت معانيها في القرآن الكريم وخطابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأحاديثه. وهي معاني جديدة لم تكن للعربية بها عهد. معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونثرها بعثًا جديدًا.

### العصر الأموي:

ازدهت الخطابة في العصر الأموي ازدهارًا. ولعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية. عملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذٍ. بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة. فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين وكل منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه.<sup>1</sup>

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضًا عظيمًا إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة. ولعل حزبًا لم يكثر خطبائه كما كثروا في الخوارج إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم ولم يدعوا لها سرًا كما دعا الشيعة في أكثر الأمر بل دعوا لها جهارًا شاهرين سيوفهم في وجوه بني أمية وولاتهم على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا. لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتخرجون من روايتهم. إذ كانوا يرون فيهم ثوارًا خارجين على الجماعة. ويظهرها كتب الأدب والتاريخ<sup>2</sup>. وعلى نحو ما كان للخوارج خطبائهم كان للشيعة خطباء كثيرون وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يندرون دائمًا ببني أمية. وأنهم اغتصبوا الخلافة. وساروا فيها سيرة جائزة عطّلوا فيها أحكام الشريعة و ما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم وتدور هذه الأفكار دائمًا في خطباتهم وخطابة أئمتهم على نحو ما نجد عند الحسين بن الامام علي -رضي الله عنه- حين اقترب من الكوفة واجتمع الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد فقد

<sup>1</sup> - شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 383.

<sup>2</sup> - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، 243.

انصرف إلى القوم بوجهه يقول في كلمة له: "أما بعد أيها الناس بأنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرض الله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان"<sup>1</sup> ومن أبرز خطبائهم سليمان بن صُرد وعبيد الله بن عبد الله المُريّ وزيد بن علي وابنه يحيى.

ولم يعش حزب الزبيريين طويلاً، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه حيث ظل نحو ثماني سنوات وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش لا هؤلاء الأمويين الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمينية الشامية وبذلك ضاع الحكم من قريش.

وعبد الله بن الزبير خطيب هذا الحزب وكان مفوهًا بليغًا يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه. ويستولى على النفوس لحلاوة منطقه، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح. ومن خطبائهم نجد أخوه مصعب بن الزبير.

وكان يقف في الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين (شيعة- خواجه- زبيريين) خطباء بني أمية يتقدمهم الخلفاء ثم الولاة والقادة. وممن أشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة في الخطابة مع جهازة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز. فكانت خطبة هذا الأخير خطبه مواظ خالصة يتحدث فيها عما ينتظم الإنسان من موت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبتها على ما قدّمت يداه<sup>2</sup>

ومن أبرز خطبائها في الأمور السياسية نجد زياد بن أبيه الذي كان خطيبًا لا يبارى في جودة خطابته. يعرف يصوغ كلمه صوغًا نهش له الأسماع وتصغى له القلوب والأفئدة وقد نوه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي: "ما سمعت متكلمًا على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يُسيء إلا زيادًا فإنه كلما أكثر كان أجود كلامًا" وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هي السياسة والمواظ الدينية. وقد بقيت من خطبة الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خَلّفها هذا العصر. وهي الملقبة بالبتراء وسميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - شوقي ضيف - العصر الإسلامي. ص 414 - 415.

<sup>2</sup> - نفسه ص 419.

<sup>3</sup> - الجاحظ، البيان والتبيين ج 3، ص 62.

ونمت بجانب الخطابة السياسية الخطابية المحفلية بين أيدي الخلفاء والولاة. إذا أخذوا أصحابها يَعْثُونَ بتعبير كلامهم وخير من يمثلهم الأحنف بن قيس واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احترامًا وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتوه تثبيتها قويًا. وهو أسلوب نهض على حلي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية وخير من يمثلهم الحسن البصري.<sup>1</sup>

### الخطابة في العصر العباسي:

نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداها في بيان حق العباسيين في الحكم، وكانوا يحسون منذ أول الأمر أن أبناء عمهم العلويين يطغون عليهم واستثنأهم بالخلافة من دونهم. فمضوا يؤكدون في خطابهم أنهم أصحاب هذا الحق حيث اشتهر منهم أبي العباس السفاح وأبو جعفر المنصور<sup>2</sup>. وبعد إضعاف العباسيين للأحزاب السياسية ضعفت الخطابة السياسية لكنها سرعان ما عادت بسبب فتنة الأمين والمأمون، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستمتاع بكلام الخطيب والفتنة بأساليبه وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة المخفلية لأن وفود العرب لم تعد تغد على قصور الخلفاء، فاقصرت الخطابة المحفلية على بعض المناسبات، أما الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ فقد حافظت على ازدهارها في هذا العصر وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها العصر بنبي أمية كانوا يشاركون فيها لهذا العصر، إذ يقول الرشيد في خطبته: "حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخير أن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له". إنكم سفرو مجتازون وأنتم عن قريب تُنقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإجابة فإنه الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين"<sup>3</sup>. لكن الخطابة الدينية كذلك وإن أخذت تضعف على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطا عظيما في المساجد أين كانت تعقد حلقات

<sup>1</sup>- شوقي ضيف- العصر الإسلامي ص484.

<sup>2</sup>- د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي3، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط6، القاهرة، مصر، 1966، ص ص 448، 449.

<sup>3</sup>- المرجع السابق، 450- 451.

للعواظ والقصاص. وكان الناس يتحلّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرّسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة أيام الجمع ومنهم غير الرّسميين، وهم الجمهور الأكبر، وكانوا يستمدون وعظّمهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص الأنبياء والمرسلين وكانوا يعنون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى والجهاد وحرب الأعداء، وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين وكان أبرزهم أبي العباس الطبري ويحي بن معاذ وأبو حمزة الصوفي.<sup>1</sup>

وبمرور الوقت استعجم المسلمون، وملك العرب ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة. عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباته المصري وأخذوا يرددونها فوق المنابر، ودرجوا على هاته الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة<sup>2</sup>، ولأن العصر العباسي عصر انفتاح على الثقافات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية<sup>3</sup>، فإن العرب لم يكتفوا بما توفر عندهم من تجارب بل ترجموا ما كان عند غيرهم من إعداد الخطابة وفنونها إلى العربية ومن الكتب المهمة التي ترجمت في هذا العصر كتاب الخطابة لأرسطو الذي ترجمه إسحاق بن حنيف وعلق عليه الفارابي وكان لظهور الفرق الكلامية وخصوصاً المعتزلة أكبر الأثر في ازدياد رونق الخطابة.

بالإضافة للخطابة نجد الموعظة في هذا العصر قد انتشرت انتشاراً واسعاً بسبب حاجة الخلفاء للعواظ فكانوا يشاركونهم في مجالسهم لعظّمهم وأحياناً كانوا يستقدمونهم فيعظونهم حتى يبكوهم مما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات ومن كبارهم الذين عرفوا بمقاماتهم المحمودّة بين أيدي الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي وابن السماك واعظ الرشيد.<sup>4</sup>

ومن خصائص الخطبة في هذا العصر جزالة الألفاظ والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. عدم الالتزام بالسجع، الإيجاز إلى ما لا تدعو إليه الحاجة

<sup>1</sup> - د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر، 1975، 526، 527.

<sup>2</sup> - أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط11، 1428هـ - 2007م، ص 158.

<sup>3</sup> - د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، المرجع نفسه، ص 448.

<sup>4</sup> - د. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، 453.



## عصر الأندلس:

لم تصل الخطابة في الأندلس كما ونوعا إلى مستوى الذي وصلت إليه في المشرق ففي عصر الولاة استعمل هذا الضرب من النثر بكثرة وذلك بدواع كثيرة أهمها: الحث عن الجهاد والقتال ضد توسيع رقعة الدولة الأموية وتثبيت أقدامها في ذلك المجتمع المتنبت حديثا، وفيما أخذ مجال الخطابة يضيق فأنحصرت مهمته في المجالس الخاصة وفي المناسبات وغالبا ما كانت الخطب تقال بطريقة الارتجال وهي طريقة استحوها أهل الأندلس فكانوا يتسابقون من خلال القطع الأدبية التي كانوا يلقونها في مجالسهم ولأسيما تلك التي تتعلق بالحكام والوزراء ليحضر كل خطيب منهم بإعجاب الحاضرين وليكون تأثيره فيهم كبيرا. وهاته خطبة أمير الأندلس عبد الرحمان الداخل في قومه يوم حربه مع يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس يحثهم فيها على الصبر والجهاد يكتسبوا المعركة "هذا اليوم أسس ما يبني عليه إما ذل الدهر وإما عز الدهر فأصبروا ساعة فيها لا تشتهون تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون".

ومن أشهر خطبائها نجد لسان الدين الخطيب وطارق بن زياد في خطبته عن الحث على الجهاد صاحب مقولة: "أين المفر البحر من ورائكم والعدو من أمامكم".  
أما من حيث خصائص الخطبة في هذا العصر سهولة العبارة ووضوح المعاني والبعد عن التكلف والسجع- تناولها المواضيع السياسية بكثرة وكذلك نجد الإيجاز والبلاغة في القول.

الأمثال: هي العبارة الفنية السائرة الموجزة التي تُصاغُ لتصوير موقع أو موقف أو حادثة، وللمثل مورد ومضرب.

أما المورد فهو القصة أو الحادثة التي أُطلق فيها لأول مرة.

أما المضرب فهو الحال الذي نستخدمه فيه لمشايمته لقصة المثل.

الحكمة: هي قول موجز موافق للحق، يصلح قانوناً من قوانين الحياة وهو ثمرة الحنكة ونتيجة

الخبرة، وخالصة التجربة.

### نشأة وتطور الأمثال والحكم:

من المعلوم لدى الجميع أن نشأة الأمثال العربية نشأت في العصر الجاهلي وتطورت ولا يمكن تحديدها بالسنة لأن المعلومات عنها وجدت مكتوبة كالخطابة، بما أن الكتابة ما كانت رائجة في ذلك العصر كيومنا هذا وعدم وجود التدوين، فتناقلها الأجيال شفاهية إلى أن ظهرت الكتابة ومن ثم سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ أُلّف فيها "صُحَار العَبْدِي" في أيام معاوية بن أبي سفيان (41-360) كتابًا، كما أُلّف فيها "عُبَيْد بن شَرِيَّة" معاصره كتابًا آخر.<sup>1</sup> ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة. وبعد ذلك في القرن الثاني الهجري كثر تأليف الأمثال بكثرة. وأُلّف فيه كتاب (أمثال العرب) للمفضل الضبي. وازدهرت الكتابة والتأليف في القرن الثالث الهجري منه كتاب (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام) قام بشرحه أبو عبيد البكري. وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى حتى يؤلّف (جمع الأمثال) لأبوهلال العسكري ويخلفه الميداني في كتابه (مَجْمَعُ الأمثال) وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابًا.<sup>2</sup>

أما عن تاريخ الأمثال أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة

ما رواه "عُبَيْد ابن شَرِيَّة" إذ لم يحاولوا من جاءوا بعده ان يفرّدوا الأمثال الجاهلية والإسلامية. وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلامها في كثير من الأحيان. ومع ذلك يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يرونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها وهي تتخذ طريقتين عندهم: فالطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره. مثل "جزاء سنمار". وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا

<sup>1</sup> - فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن للنشر بالرياض، السعودية ط1، 1420هـ/1999م ص 21.

<sup>2</sup> - شوقي ضيف - العصر الجاهلي ص 404.

المثل إلى الجاهليين. فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه. وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة، ومن يُغرق في القدم مثل: "لقمان عاد" من قبيلة يمنية التي كانت تنزل في الأحقاف والتي بادت ولم تبقى منها باقية في الجاهلية وقد ظل اسم "لقمان" يدور على ألسنة شعرائهم. وجمع أمثاله "هَلْر" في كتاب سماه "أمثال لقمان"<sup>1</sup>.

وقد اشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، ويقول الجاحظ: "ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكنم بن صَيْفِي<sup>2</sup> وربيعة بن حُذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظُّرب العدواني ولبيدين ربيعة" ومن أمثال أكنم الصيفي نجد "رب عجلة تهب ريثا". "وأسوأ الآداب سرعة العقاب". "ربّ كلام ليس فيه إكتتام". "إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة". "لا تطمع في كل ما تسمع"<sup>3</sup>.

أما الحكمة استمد الفرد العربي الجاهلي الحكمة من الحياة اليومية ومن التفكير الفطري، لأن حياتهم تمتاز برجاحة العقل وعمق النظر. وطبعت الحياة القبلية بطابعها على الحكمة الجاهلية. فنجد العشيرة تشترك في الجزيرة والواجب على العربي الوقوف بالصلابة بجانب أخيه العربي، والدعوة إلى الشجاعة وحفظ العرض والجود والتمسك بأهداف الصدق.

ولا شك أن العصر الجاهلي كان أكثر العصور الأدبية إنتاجاً للأمثال والحكم، ويتجلى ذلك واضحاً بالرجوع إلى كتب الأمثال والحكم الكثيرة، خاصة المؤلفات في العصر العباسي. كما اشتهر هذا العصر بأسماء لأعلام ضرب بهم المثل كل حسبما عرف به، وكمثال على ذلك: (أبلغ من قس). (أحكم من لقمان). (أوفى من السموأل). (أجود من حاتم). (أعدى من الشنفرى). (رجع بخفي حنين). (أطمع من أشعب). (مواعيد عرقوب).

وفي صدر الإسلام أتى القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين، فكان جامعاً كل المبادئ والقيم السامية وفتح الإسلام الحنيف الآفاق لنمو الحكمة الجاهلية الداعية إلى المودة والتألف والكرم والشجاعة. والقرآن يشيد بالحكمة فقله تعالى "ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله. فإنما يشكر

<sup>1</sup> - شوقي ضيف، العصر الجاهلي. ص 404 - 405.

<sup>2</sup> - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 365.

<sup>3</sup> - شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص 407.

لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد".<sup>1</sup> وكذلك في قوله (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب) سورة البقرة: الآية 269

ولقد جاء في أمثال القرآن الكريم واضحة أغلبها فيها المشبهه صراحة إلى جانب المشبه به ، قال تعالى: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) سورة إبراهيم: الآية 24. وقوله أيضا: (مثل الذي اتخذوا من الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ولو كانوا يعلمون) سورة العنكبوت: الآية 41

والرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى تعلم الحكمة من أفواه الناس لأنها ثمرة التجربة الإنسانية المتجددة المتغيرة فقال: "الحكمة ضالة المؤمن"<sup>2</sup>. "إن من الشعر حكمة ، وإن من البيان سحرا"، ومن حكمه وأمثاله: "المؤمن مرآة المؤمن"، "لأخير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى"، "ليلدغ المؤمن من جحر مرتين"، "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"، "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" ومن المصادر الأخرى للمثل والحكمة في صدر الإسلام، ما جاء على لسان الخلفاء والصحابة والعلماء والصالحين ومنها:

أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- إن البلاء موكل بالمنطق، وقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- "خذو الحكمة من أفواه المجانين" ، وكذلك الإمام علي- كرم الله وجهه- الذي كان يتمتع بالحكمة ومن حكمه نجد: "القناعة مال لا ينفد". "العفاف زينة الفقر والشكر زينة الغنى". "الصبر صبران. صبر على ما تكره وصبر على ما تحبه". "كل وعاء يضيق بما جُعِلَ فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع". "لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة".

ويظل المفهوم الإسلامي للحكمة سائداً في العصر الأموي الذي حاول العرب فيه الاحتفاظ بعروبيتهم والابقاء على تراثهم الحضاري. فالحكمة عندهم تظل مرتبطة بالعلم لكنها أخذت تتطلع إلى الفلسفة اليونانية بتحفظ. فالحكمة في العصر الأموي وثيقة الصلة بالعلم. ولكن دائرة العلم تتسع هنا نظراً لاتجاه الأمويين إلى الترجمة عن اليونانية فتتسع تبعاً لدائرة الحكمة. غير أنه لم يبتعد كثيراً عن الأمثال الجاهلية والإسلامية بصيغة دينية، ولعله كان لحكماء هذا العصر دور إيجاد حكم وأمثال مثل معاوية

بن سفيان ، وعمر بن عبد العزيز ، وإبراهيم بن يزيد النخعي والحسن البصري<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - سورة لقمان الآية 12.

<sup>2</sup> - ابن ماجه. كتاب الزهر رباب الحكمة ج 9 (416 / 1395) (2).

<sup>3</sup> الميبداني. مجمع الأمثال ج 1 ص 12-13

ومن أمثال وحكم عمر عبد العزيز: (آفة الرئاسة الفخر). (لاينفع القلب إلا ما خرج من القلب). (من عد كلامه من عمله قل كلامه). (أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم). (أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم).

كما نجد الحسن البصري في حكمته الوعظية: (من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها). (عظ الناس بفعلك ولا تعظمهم بقولك). (إن النفس أمارة بالسوء فاعصها في الطاعة ، فاعصها أنت بالمعصية).

وأيضاً نجد معاوية بن أبي سفيان له أمثال وحكم مثل: (الغريب لمن لا أدب له). وفي العصر العباسي ازدهرت حركة النقل والترجمة عن الثقافات الهندية والفارسية واليونانية، وقد نشط العرب نشاطاً ظاهراً بعد احتكاكهم بغيرهم من الأمم ذات الحضارات الراسخة في نقل تراث الحضارات القديمة للاستفادة منها.

وقد شهد العصر العباسي انتشاراً للمعارف والعلوم والتأليف وانعكست على الحياة الأدبية وفنون النثر خاصة، فكان للمدينة والحياة الجديدة أثر بالغ في الحكمة المبنية على الخبرة والمعرفة، ولقد اصطبغت بصبغة المدينة الجديدة، وانطلقت قوية المبنى في قسم كبير منها، وقد كانت ثمرة الخبرة والمعرفة، ثمرة العقل الاختياري، والعقل التفكيري، ولهذا كانت الحكمة العباسية شديدة التأثير و شديدة الانطلاق والانتشار ولهذا كان لها قيمة إنسانية حقة، وكانت الكنز الذي اغترف منه الناس على ممر العصور<sup>1</sup>

وغدا إنتاج الأمثال والحكم في العصر العباسي أمراً ميسوراً عند العرب والفرس والمولدين، وجمعها وتدوينها متاحاً لمن اجتهد فيها، وقد ألفوا فيها الكتب، ومن أشهرها "مجمع الأمثال" للميداني في نحو خمسين كتاباً مرتب على حروف المعجم، بعد أضاف إليه أمثال المولدين، و"المستقصى في الأمثال" للزمخشري.

ومن أمثال هذا العصر: (عند الامتحان يكرم المرء أو يهان). (ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والتكبر عند الاستغناء). (معالجة الموجود خير من انتظار المفقود). (من غير غير). (الخنفساء في عين أمها راشية). (الجنون فنون). (عذره أشد من ذنبه).<sup>2</sup> الأمثال والحكم في العصر الأندلسي:

<sup>1</sup> حنا الفاخوري، الحكم والأمثال دار المعارف مصر. ط. 1980، 4، ص 63  
<sup>2</sup> الثعالبي، التمثيل والمحاضرة تحقيق: عبد الفتاح محمد الطلو، الدار العربية للكتاب ط، 1981، 2، ص 44، 45.

لقد تأثرت الأمثال والحكمة في العصر الأندلسي بما كان يجلو في الأدب العباسي "فقد كان صدى لحكمة بني العباس كما كان الأمر في أدب الأندلسي، وذلك أن عهد الانحطاط في الأدب في عهد انهيار فكري وفني، فكان الأديب فيه شديد التلفت إلى من سبقه شديد التقليد والزخرفة اللفظية والبديعية، شديد التلمي بالقشور والظواهر الفنية، وكذلك كان الأديب الأندلسي صادقاً في التعمق في التحليل، والانفلات في أجواء الفكر، صادقاً عن التغلغل في الأغوار، مهمه أن يقلد الأديب العباسي، وإن يلوك أفكاره، ويردد بعض حكمه من غير ما ابتكار ولا تجديد"<sup>1</sup>

ويرجع هذا الترابط الوثيق بين الأدبين العباسي والأندلسي خاصة الأمثال والحكم إلى طبيعة المرحلة التاريخية من جهة، وإلى كتب الأمثال والحكم العباسية التي دخلت الأندلس من جهة أخرى، وغدت مرجعاً في مجال اختصاصها، وهي الكتب التي رصدها ابن خير الأشبيلي في فهرسته والتي تداولت في الأندلس وتم دراستها والاستناد عليها، ومنها: كتاب "أمثال لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري"، وكتاب "الأمثال لعبد الملك بن قريب الأصمعي"، وكتاب "الأزهر لابن الأنباري"، وكتاب "أفعل من كذا لأبي علي البغدادي"، وكتاب "المجلة في الأمثال عن أبي عبيدة معمر بن المثنى"، وكتاب "الأمثال للمفضل الضبي"<sup>2</sup> ومن الأمثال والحكم الأندلسية: (لو طلب لبن الطير في اشبيلية وجد)، (من غاب خاب وأكل نصيبه الأصحاب)، (أمدح البلدان وأسكن جيان)، ومن أشهر البلغاء والأدباء في الأندلس ابن عاصم الأندلسي الغرناطي، ومن أمثاله وحكمه نجد: (زيادة الظلم خراب)، (الخير عادة والصبر عبادة)، (جازي الكريم بفعله وأترك اللئيم ولا تنظر إلى عمله)، (ثوب خشن يستر كخير من ثوب حرير يفضحك)، (حصل زادك ليوم معادك تبلغ مرادك)، (زدناه قريباً زادنا هرباً)، (إن لم ينفك ألباز أنتف ريشه)، (زيادة الشيء نقصان).

### الفرق بين المثل والحكمة:

- 1- أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، والمثل خاص بالأقوال.
- 2- أن الحكمة قد يقع فيها التشبيه وقد لا يقع والمثل وقع فيه التشبيه.
- 3- أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ. ولا يبعد أن يقال بعد ذلك أن المثل هو من الحكمة فهي تعمُّه وتعم غيره. ومن هنا قرر الإمام أبو هلال العسكري صاحب كتاب (جمهرة الأمثال) "أن كل حكمة سائرة تسمى مثلاً".
- 4- أن المثل ينطلق من حاجة نفسية عميقة وهو أكثر شعبية من الحكمة وأعم وأشمل منها.

<sup>1</sup>حنا الفاخوري، ص، 63، 64.

<sup>2</sup>ابن خير الأشبيلي، فهرسة ابن خير الأشبيلي، تحقيق: محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

5-المثل يتسم بالعمومية ،أي يكون نتاج عامة الناس،بينما الحكمة في الغالب هي نتاج خاصة الناس،أي حكماء الناس وعقلائهم.

6-المثل يأخذ طابع المشافهة عادة،بينما الحكمة أغلبها مدون في الشعر والخطب ونحوها.

7-للمثل مورد ومضرب ،وأما الحكمة فهي خلاصة لتجربة إنسانية.